ذاكرة المجلة

العدد الثاني ١٩٨١

جبران ومستقبل اللغة العربية

شفيق يحيى

كانت مجلة «الهلال» المصرية (مؤسسها اللبناني جرجي زيدان) قد وجهت بعض الأسئلة حول مستقبل اللغة العربية الى بعض رجال الفكر ، في العقد الثاني من القرن العشرين ، وقد كان لجبران ردٌ مشهور ذو تطلعات مستقبلية تدعو المواطن العربي الى التفكير بلغته ودورها في بناء مستقبله ، وتستوقف كل مسؤول تربوي للتفكير جدّياً بأهمية توحيد المدرسة والكتاب المدرسي ودورهما في تقوية وحدة الوطن وتوحيد كلمة ابنائه .

يرى جبران ، في ردّه على السؤال الأول ، ان «اللغة العربية مظهر من مظاهر قوة الابتكار في مجموع الأمة» ، وان مستقبلها «يتوقف على مستقبل الفكر المبدع الكائن – أو غير الكائن – في مجموع الأمم التي تتكلم اللغة العربية» .

ان جبران ، الذي اشتهر بثورته الاجتماعية ، كان يريد ان يكون ثائراً لغوياً أيضاً ، وربط قوة اللغة بقوة الفكر والابداع ، وبالابتعاد عن التقليد ، وطبق ثورته ومارسها من خلال نثره الفني المميز في كل ما كتب .

غير أن ما نحب ان نوليه اهتمامنا الآن هو ما أجاب به جبران عن السؤالين التاليين :

– هل يعمّ انتشار اللغة العربية في المدارس العالية وغير العالية ، وتعلّم بها جميع العلوم ؟

– وهل تتغلب «اللغة العربية الفصحى» على اللهجات العامية المختلفة وتوحدها ؟

في زمن جبران كان التعليم في بلادنا محصوراً في الجمعيات الطائفية ، والارساليات الأجنبية ، أو الكتاتيب المحلية ، ولم يكن آنذاك وجود للمدرسة الرسمية الوطنية ، بل كان للتعليم مصادر متعددة ، مختلفة المشارب والمذاهب والمراجع ، فكان من الطبيعي ان يقلق كل مفكر على مستقبل أمته ووطنه ، وقد عبّر جبران عن قلقه هذا بقوله : «لا يعمّ انتشار اللغة العربية في المدارس العالية وغير العالية حتى تصبح تلك المدارس ذات صبغة وطنية مجردة ، وان تُعلّم بها جميع العلوم حتى تنتقل المدارس من أيدي الجمعيات الخيرية واللجان الطائفية والبعثات الدينية الى أيدي الحكومات المحلية» .

ثم يعود ويصعّد قلقه بقوله : «ففي سوريا مثلاً كان التعليم يأتينا من الغرب بشكل الصدقة ، وقد كنا ولم نزل نلتهم خبز الصدقة ، لاننا جياع متضوّرون ، ولقد أحيانا ذلك الخبز ، ولما أحيانا أماتنا» .

بعد هذا التصريح والتحذير اللذين صدرا عن جبران منذ حوالي ستين سنة ، علينا أن نتساءل :

أصحيح ان التعليم القادم من الغرب أحيانا ثم أماتنا ؟ ولماذا ؟

وهل انتهى هذا الدور الذي تحدث عنه جبران في إحيائنا وإماتتنا ؟

وهل نحن ، مع هذا الانتشار الواسع للمدارس الرسمية والخاصة ، العالية وغير العالية ، احياء أم أموات ؟

وهل أنقذنا انتشار المدارس الرسمية مما كان يحذّرنا منه جبران ؟

اسئلة كثيرة يجيب جبران نفسه عن أولها في المقالة نفسها : «أحيانا لأنه (أي التعليم الآتي الينا من الغرب) أيقظ بعض مداركنا ، ونبّه عقولنا قليلاً ، وأماتنا لأنه فرّق كلمتنا وأضعف وحدتنا ، وقطع روابطنا ، وأبعد ما بين طوائفنا ....» .

أما الأجوبة عن بقية الأسئلة والتساؤلات فإننا نتجاوزها الى القول اننا خطونا خطى واسعة منذ مطلع الاستقلال وقبله ، في تعميم التعليم الرسمي وتوحيد الكتاب المدرسي ، غير ان المسيرة ما زالت طويلة وشاقة ، لأن المدرسة الرسمية ما زالت عاجزة عن الحلول مكان المدرسة الخاصة حلولاً كاملاً ، والكتاب المدرسي الوطني ما زال في منتصف الطريق ، وبالتالي يبقى تخوّف جبران ساري المفعول سنوات أخر ، عسى ان لا تطول .

وماذا في جواب جبران عن السؤال الأخير ؟

ان جبران ، في جوابه ، لا يدعو صراحة الى تغليب الفصحى ، كما كانت في أيامه وما قبل زمانه ، كما لا يدعو الى تغليب العامية ، ولكنه يقول : «ان اللهجات العامية تتحور وتتهذب ، ويتدمث الخشن فيها ويلين ، ولكنها لا ولن تغلب - ويجب ان لا تغلب - لأنها مصدر ما ندعوه فصيحاً من الكلام ومنبت ما نعدّه بليغاً من البيان» .

وجبران يرى ان «في اللهجات العامية الشيء الكثير من الأنسب الذي سيبقى ، لأنه أقرب الى فكرة الأمة وأدنى الى مرامي ذاتها العامة» . ثم يعلل هذا البقاء بأنه «سيلتحم بجسم اللغة ويصير جزءاً من مجموعها» .

واستناداً الى تعليله هذا استعمل كلمة «بتحمم» العامية بدلاً من «استحمّ» الفصيحة ، في قصيدته «أعطني الناي» :

هل تحممتَ بعطرٍ   وتنشفتَ بنـــــور

وشربتَ الفجرَ خمراً   في كؤوسٍ من أثير

هذا ، وإذا كنا نؤيد جبران ان «لكل لغة من لغات الغرب لهجات عامية» ،

وان «لتلك اللهجات مظاهر أدبية وفنية لا تخلو من الجميل المرغوب فيه والجديد المبتكر» ،

وان «في الموالي والزجل» و «العتابا» و «المعنى» من الكنايات المستجدة والاستعارات المستملحة» التي تفوق «تلك القصائد المنظومة بلغة فصيحة» ،

وان «اللغة الايطالية الحديثة كانت عامية في القرون المتوسطة» ،

فاننا لا نوافقه في ان اللهجات العامية العربية ستتحول الى لغة فصحى ، حتى وان «ظهر في الشرق عظيم ، ووضع كتاباً عظيماً في إحدى تلك اللهجات» .

يمكن ان ندعم رأينا بموقف جاك بيرك ، الذي يتباهى ، وهو الفرنسي المتمكن من لغته ، بأنه تعلم اللغة العربية وأتقنها بجميع لهجاتها ، من المغرب والجزائر الى مصر ولبنان ، فاليمن والخليج ، حتى بات لا يُعرف ولا يُميَّز عن متكلمي تلك اللهجات ، اذا ما وُجد بينهم ، الا انه على الرغم من هذه الثروة اللغوية ، وهذه التجربة الخصبة النادرة ، حريص على العربية الفصحى لأنها ، في رأيه ، الحكَم والمصحح والهادي الوحيد لتلك اللهجات ، ولا يمكن مقارنة دورها بدور اللغة اللاتينية بإزاء لغات أوروبة الحديثة . (راجع كتابه Arabies ، ستوك ، باريس ١٩٨٠) .

وبعد ستين سنة من نشر آراء جبران حول مستقبل اللغة العربية ، نرى ان اللغة العربية منتشرة في المدارس العالية وغير العالية ، وان العلوم تدرَّس بها في معظم البلدان العربية ، وان هذه اللغة قادرة على استيعاب علوم العصر ، وهذا ما تنبأ به مفكرنا الكبير ، مؤكداً «ان في المدرسة تتوحد الميول وفي المدرسة تتجوهر النازع» ، وان «هذا لا يتم حتى نستبدل خبز **الصدقة بخبز معجون في بيتنا**» .

واذا كانت المدرسة الرسمية ، بكل مراحلها ، هي أفضل المصادر للخبز الوطني ، الموحِّد للميول والأهداف ، فان اللغة العربية الفصحى هي التي يجب ان تغلب ، لأنها **أداة** هذا التوحيد والتقارب والتفاهم بين بلدان الوطن العربي الكبير ، شرط ان يستمرّ فيها التجديد والتجدُّد ، والتطوير والتطوُّر ، في استعمالها وطرائق تدريسها وتبسيط تعلّمها .